أولى ماستر علوم الحديث

دراسات معمقة في الشروح الحديثية

جامعة الشهيد حمه لخضر
معهد العلوم الإسلامية
قسم: أصول الدين

السنة الأولى ماستر

2022

المقياس : دراسات

معمقة في الشروح الحديثية
الحجم الســـاعي: 14 ساعة
عنوان الماستر: الحديث وعلومه
إعداد الدكتور: زكرياء قادي
السداسي: الأول
اسم الوحدة: التعليم الأساسي.
الرصيد:04
المعامل:02

فيفري 2022

EMAIL: ABDOU_ZAKI92@YAHOO.COM

قائمة المحتويات

وحدة 5

I-نشأة الشروح الحديثية وتطورها وبداية التصنيف فيها 7

آ. نشأة الشرح الحديثي في عهد النبي –صلى الله عليه وسلم-.....7

ب. تطور الشرح الحديثي في عصر الصحابة.....9

پ. شرح الحديث في عصر التصنيف.....9

وحدة

عند الانتهاء من هذا المحور سيكون الطالب ملمًا بأهداف عديدة بناء على مستويات بلوم المعرفية التالية:

- مستوى المعرفة والتذكر

- معرفة الطالب بالشروح الحديثية.
- التعرف على مناهج الأئمة فيها من حيث الصناعة الحديثية وكذا الصناعة الفقهية.
- معرفة طرق الاستفادة من هذه الشروح .
- أهم المزايا وكذا النقد الموجه لكل نوع من أنواع الشروح.
- إلمام الطلبة بالمفاهيم المتعلقة بالموضوع.
- التمييز بين المفاهيم وميدان تطبيقها.
- سلاسة استعمال كل ما يعترض الطالب من تداخل بين المصطلحات المتقاربة في المحور الواحد والتمييز بينها وبين استعمال كل منها.

- مستوى الاستيعاب والفهم

* حصول الطالب على مكنة كبيرة في تمييز المصطلحات المتعلقة بالمحور.
* الرصيد العميق الذي يحصله الطالب والذي من خلاله يميز الطريقة المثلى للتطبيق.
* حصول الطالب على خريطة ذهنية تجعله يضع كل فرع من فروع المحور في بابه.

- مستوى التطبيق

*حصول الطالب على مكنة علمية تمكنه من البحث في أي أنواع الشروح الحديثية ينتمي الموضوع.
* الحصول على تطبيقات ذات مستوى متقدم من طرف الطلبة.

I نشأة الشروح الحديثية وتطورها وبداية التصنيف فيها

نشأة الشرح الحديثي في عهد النبي –صلى الله عليه وسلم- 7
تطور الشرح الحديثي في عصر الصحابة 9
شرح الحديث في عصر التصنيف 9

أول ما نشأت الشروح الحديثية نشأت في عهد النبي –صلى الله عليه وسلم- فأول محطة نبدأ بها هي عهد النبي –صلى الله عليه وسلم-.

آ. نشأة الشرح الحديثي في عهد النبي –صلى الله عليه وسلم-

تعود نشأة الشرح الحديثي إلى عصر النبي –صلى الله عليه وسلم- وصحابته الكرام –رضوان الله عليهم- وكان يستعمل أساليب متعددة في إيصال معنى الحديث في أذهان الصحابة –رضوان الله عليهم- ومن أساليبه أنه كان يكرر الكلام حتى يفهم وربما يحصى، فعن عائشة –رضي الله عنها- أن النبي –صلى الله عليه وسلم- : «كان يحدث حديثا لو عدّ العاد لأحصاه».

وكانت تقول عائشة –رضي الله عنها- : «ما إذا كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يسرد سردكم هذا، ولكنه كان يتكلم بكلام بيْنَه فصلٌ، يحفَظُه من جلس إليه».

وكان –صلى الله عليه وسلم- يعيد الكلمة ثلاثا ليفهمها الصحابة –رضي الله عنهم- ويعقلوها، فعن أنس بن مالك –رضي الله عنه- قال: «كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه».( ) وعن

عائشة –رضي الله عنها-: «كان يحدثها حديثا لو عدّة العادّ لأحصاه».

كما كان –صلى الله عليه وسلم- ينهج ويسلك مع أصحابه نهج السؤال، وهي طريقة يستخدمها لجذب وتنبيه الصحابة لفهم ما يريد أن يقذفه في قلوبهم، ومن ذلك حديث أبي هريرة –رضي الله عنه- :«أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له وملا متاع، فقال: «إن المفلس من أمّتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح في النار».

وفي خطاباته وتفهيمه للصحابة مراد ومقصد الأحاديث، إذ كان يستعمل ما قلّ من الكلام ودل، ففي حديث أبي هريرة –رضي الله عنه- أن رسول الله عليه وسلم- قال: «فُضلت على الأنبياء بست، أُعطيت جوامع الكلام ونُصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأرسلت إلى الخلق كافة و ختم بي النبيون».

وكان –صلى الله عليه وسلم- يستعمل الأسلوب الإشاري في الحديث: والأسلوب الإشاري هو أسلوب يستعمل في تقريب المعنى للمخاطب، و استعمله النبي –صلى الله عليه وسلم- في حديثه في العديد من الوقائع، ويقصد به الإشارة باليد أو الإصبع أو اللسان...الخ. لإضفاء مزيدا من الشرح والبيان إذا الغاية من الحديث فهمه، والعمل به وهو أسلوب لطيف أوقع في القلوب وأسرع في التفهيم، ودرج أحيانا رواة الحديث على ترديده، على ذات الكيفية التي رووها على النبي –صلى الله عليه وسلم-.

ويسمى الأسلوب الإشاري عند المحدثين وذلك عندما يُروى حديث النبي –صلى الله عليه وسلم- بملابسات معينة، كأن يقول الراوي كلمني النبي-صلى اله عليه وسلم - وأخذ بلحيته، أو يقول شبك النبي –صلى الله عليه وسلم- وقال كذا....، وإذا روي الراوي مثل هذه الأحاديث، يعني يروي الراوي الحديث وملابسات الحديث، فهو مدعاة أنه يقبل حديث الراوي عند النقّاد، لأن حكايته للحديث ولما يحوم حول الحديث دليل على حفظه، وهذا معروف عند النقاد من أهل الحديث.

وكان يستعمل –صلى الله عليه وسلم- أساليب كثيرة، كأن يشير بيده، أو يحلق أصابعه أو يشبكها، أو يخطّ خطوطا في الأرض، وكان يستعمل كل ما يراه مناسبا لأن يصل إلى أذهان أصحابه –رضوان الله عليهم- وفيما يلي تفصيل ذلك.

- الإشارة باليد: عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كنا في سفر مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فلمّا غربت الشمس قال لرجل: «أنزل فاجدح لي. قال: يا رسول الله لو أمسيْتَ، ثم قال: أنزل فاجدح قال: يا رسول الله لو أمسيت، إن عليك نهارا، ثم قال: أنزل فاجدح. فنزل فجدح له في الثالثة، فشرب رسول الله –صلى الله عليه وسلم- ثم أومأ بيده إلى المشرق فقال: إذا رأيتمْ الليل قد أقبل من هاهنا فقد أفطر الصائم».
- تحليق الأصابع: وهو أسلوب أكثر وقعا في نفس المتحدثين والمخاطب على حد سواء، لما فيه من تخيل في أبعاد الكلام، وعمق في التحليل، عن زَيْنَبَ بنتِ جحشٍ أن النبي –صلى الله عليه وسلم- دخل عليها فزعًا يقول: «لا إله إلا الله ويل للعرب من شرٍ قد اقترب فُتِح اليومَ من ردْم يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذا، وحلق بإصْبَعِه وبالتي تليها فقالت زَيْنبُ، فقلت: يا رسول الله أنهْلِكُ وفينا الصالحون قال نعم إذا كثُر الخبَثُ».

ويقصد –صلى الله عليه وسلم- هنا بالخبَثِ الفساد والطغيان والجهل بالمعصية وانتهاك حرمات الله ليلا ونهارا، فلا أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر.

- تشبيك الأصابع: عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبّك أصابعَه».( )
- الهمس: عن جابر بن سمرة، قال: كنت مع أبي عند النبي –صلى الله عليه وسلم- فقال: «يكون لهذه الأمة اثنا عشر قيِّما لا يضرهم من خذلهم، ثم همس رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بكلمة لم أسمعها، فقلت: لأبي: ما الكلمة التي همس بها النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: «كلهم من قريش».
- التمثيل: يستعمل النبي –صلى الله عليه وسلم- الأمثلة التوضيحية للبيان النبوي من البيئة حتى يكون أوقع في النفس وأسرع في الفهم، كقوله –صلى الله عليه وسلم- : «مَثَلُ ما بعثني الله به من الهُدى والعلم كمثل الغيثِ الكثير أصاب أرضا فكان منها نقيةٌ قبلتْ الماء فأنبتتْ الكلأ والعشب الكثيرَ وكانت منها أجادبُ أمسكتْ الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرَعوا، وأصابتْ منها طائفةٌ أخرى إنما هي قيعان لا تُمسك ماءً، ولا تُنبت كلأً فذلك مَثَلُ من فقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلِم وعلَّم ومثَلُ من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»، وهذا أسلوب بديع وفصيح وجامع للكلام.
- أسلوب الوصية: هو أسلوب يفيد في زيادة الانتباه، وحسن فهم المراد من الوصية، كما توقعه الموصي إليه من الفوائد، عن الصُّنَابِحِيِّ عن معاذ بن جبل أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- أخذ بيده وقال: «يا معاذ والله لإني أحبك والله لأني أحبك». فقال: أوصيك يا معاذ لا تَدَعَنَّ في دبر كلِّ صلاة تقول: اللهم اعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».( ) وأوصى بذلك معاذٌ الصنابحيَّ، وأوصى به الصنابحيُّ أبا عبد الرحمن. وكان –صلى الله عليه وسلم- يُفصِّل العبادات

كالصلاة وأعمال الحج بأفعاله–صلى الله عليه وسلم-.

ومن أساليبه أنه كان يجيب السائل، كقوله –صلى الله عليه وسلم- «لا عدوى، ولا صَفَرَ، ولا هَامَةَ فقال أعرابي يا رسولَ الله فما بال إبلي تكون في الرمل كأنما الظِّباء فيأتي البعير الأجربُ فيدخل بينها فيُجْربُها فقال فمن أعدى الأوَّلَ».

وكان يكشف لما استشكل على الفهم من الحديث، ففي الحديث لما نزلت «والذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم ...»(الأنعام:82) قلنا يا رسول الله أينا لا يظلم نفسه؟ قال: ليس كما تقولون: (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) بشرك، أو لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه (يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)(لقمان: 13).

وإذا ما قورن ما كان يفسره من القرآن، فما كان يشرحه من الحديث كان على نطاق ضيق، وبأساليب بسيطة، كما سبق فمنها ما كان شفهي، ومنها ما كان بأشياء أخرى، كالإشارات والأسئلة والتمثيل هو أسلوب في بدايته، لأن الذين كان يخاطبهم كانوا عرب أقحاح لم تختلط العجمة لا بعقولهم ولا بأذهانهم. ولمّا انتشر الإسلام خارج الجزيرة العربية، ودخل في الإسلام كثير من غير أصحاب اللسان العربي وانتشرت العجمة بين العرب، أصبحت الحاجة إلى شرح الحديث أكثر، وفي هذه المرحلة بالذات ظهرت بعض المصنفات في عم شرح الحديث.

ب. تطور الشرح الحديثي في عصر الصحابة

رأينا في نشأة الشرح الحديثي في العصر النبوي أن النبي –صلى الله عليه وسلم- كان يعّلم ويشرح ما أشكل من الأحاديث للصحابة من غير أن يكون هناك وجود لكتب الحديث التي جمعت الأحاديث، إنما كان يبين معنى الأحاديث هنا وهناك، لأن الحديث لم يكن مجموعا في كتب، أو بعبارة أخرى كان –صلى الله عليه وسلم- يوضّح الأحاديث قبل التصنيف في الكتب، ورأينا كيف كان أسلوبه في بيان الأحاديث بين الإقرار، وتصحيح ما يمكن تصحيحه، كقضية الوصال التي نهى عنها بعض الصحابة –رضي الله عنهم- وعلّل ذلك بأن هذا العمل خاص به فقط، وقد تحدث العلماء عن مثل هذه الأحاديث، وإلى غير ذلك من أساليبه في بيان معنى أحاديثه - صلى الله عليه وسلم- وبعد وفاة النبي –صلى الله عليه وسلم- جدّت أمور عدّة استدعت التوسع في الشرح والبيان وذلك بسبب ما يأتي:

- انتشر الصحابة –رضوان الله عليهم- في البلدان، وأدى بعد ذلك إلى تعدّد مخارج السنن، واستدعى ذلك الخلاف في فهمها، وعلى أثره ظهرت المدارس الفقهية في تلك البلاد، وأصبح لكل مدرسة منها سمة تتميز بها عن الأخرى.
- اتساع رقعة العالم الإسلامي، ودخول الناس في دين الله أفواجا من كل عرق ولون ولغة، وأدّى هذا التمازج، والاختلاط بين الأمم، مما جعل فهم بعض الألفاظ النبوي عصية على بعضهم، وكان هذا يدعو الصحابة والتابعين إلى بيان بعض هذه الألفاظ، وهذا أيضا أدى إلى الحاجة الماسة لفهم معانيها ودلالاتها.
- ظهور الأهواء والأقوال المنكرة، ومبادئ المذاهب الكلامية المنحرفة، واتكاء هؤلاء على أحاديث نبوية احتجوا بها أوردوها لمخالفتها العقل في زعمهم، والذي جعلوه مقدما في الاستدلال، وعلى سبيل المثال ردّ ابن عمر –رضي الله عنهما- على القدرية بحديث جبريل -عليه السلام- الشهير.
- حصول الخلاف السياسي، وما أدّى إلى تناحر وتنازع واستدلال بالنصوص في غير محلّها، وفهمها على غير مقصودها.
- تباعد الزمن عن عصر الرسالة، وكلما بعدت العصور عن عصر الرسالة كانت أحوج إلى فهم مراد الشارع، وفهم السنة المطهرة ضرورة لأنها سبيل إلى فهم كلام الله.

والملاحظ أن الاختلاف بين أهل ذلك العصر في تفسير ألفاظ الحديث أقل من اختلافهم في الاستنباط والفهم.

ب. شرح الحديث في عصر التصنيف

يمكن أن نجمل شرح الأحاديث التي جمعت في المصنفات على النحو التالي: قبل أن نذكر الكتب التي شرحت الأحاديث شرحا معينا، يمكن القول أن الذين جمعوا الأحاديث بحسب الموضوع الذي تتكلم عنها كان الأسبق، بمعنى أن إيراد الأحاديث المرفوعة في موضوع واحد وملاحظة التناسب بينها بإيراد العام ثم الخاص، أو المنسوخ ثم الناسخ، وهذا وارد في سنن النسائي الكبرى والصغرى.

- وكذلك إيراد الحديث المرفوع مع شواهده القرآنية والتفسير، وإيراد بعض أقوال أهل العلم مع

التبويب الاستنباطي، وظهر بصورة جلية عند الإمام البخاري في صحيحه، والترمذي في جامعه.

- إيراد الحديث المرفوع وما في معناه من أثار مع التبويب، وهذا واضح في مصنف عبد الرزاق الصنعاني، وأبي بكر بن أبي شيبة.
- إفراد بعض الموضوعات بالتصنيف وسياقها على طريقة نوع من الأنواع السابقة، وقد يستطرد المصنف في التعليق على الحديث والجمع بينه وبين ما يعارضه، مثل كتاب الزهد لوكيع بن الجرّاح.
- الاستعانة بالشرح الموضوعي في العلوم التي يحتاج فيها إلى الحديث الشريف كما هو ملاحظ في كتب الإمام محمد بن الحسن الشيباني، والإمام محمد بن إدريس الشافعي وغيرهما في كتبهم المتعددة في العقائد والتفسير والفقه، فشرح هؤلاء للأحاديث كما أشار ابن الأثير –رحمه الله- إنما هو سبب تعلّقها بما هم بصدده من بيان العقائد أو التفسير أو الأحكام الشرعية، فحينما ذكروها فهي في مقام الاستدلال ليستنبط منها ما يريده، ولم يخصوا تلك الأحاديث بكتاب مفرد، قصدوا منه الشرح، فإيرادهم لها تبع لا قصد.
- ويلاحظ كذلك أن كثيرا من مؤلفي هذه الكتب الموضوعية، لم يعنونوا كتبهم بمسمى الشرح، إلا أنه صنيعهم فيها يقتضي أنه يكون شرحا أو نوعا منه لمن تأمّل.
- ويلاحظ أيضا أن الظواهر التي جدت في هذا العصر من خلافات عقدية وفقهية، وظهور للبدع الفلسفية التي اعتمدت على العقل مهملة الأثار، أثر كبير في ظهور وكثرة المصنفات في الحديث الموضوعي الجامعة للأحاديث و الآثار، من مثل كتب الإمامين محمد بن الحسن الشيباني والشافعي، والردّ على بشر المريسي لعثمان بن سعيد الدّارمي.

فعندما اكتمل الشرح الموضوعي المتعلق بالمعنى الجامع للحديث كما أشرت فيما سبق، كان الأسبق في الظهور تصنيفا، وذلك لما قام العلماء الكرام –رحمهم الله- بوضع مصنفات على الكتب، وكما قلت كانت مرتبة على الأبواب والتناسب الواقع بينها.

ويمكن القول أن يؤرخ لظهور بوادر في شرح الحديث ببداية القرن الثالث الهجري، كما يدل عليه استقراء المصنفات المتخصصة في ذلك، وبناء على ما ورد في الكتب المتخصصة في المصنفات الحديثية حول هذا النوع من التصنيف.

ويمكن القول بأن هذا النوع من المصنفات كان في بداية أمره متعلقا بموطأ الإمام مالك –رحمه الله-.

ويمكن أن نستدل أن من أوائل ما وصلنا من تلك الشروح على الموطأ شرح عبد الملك بن حبيب السُّلمي الأندلسي (ت 238هـ) والمعنون له بـ «تفسير غريب الموطأ»، ثم تتابعت الشروح بعد ذلك عليه إلى يومنا هنا، وتعتبر شروح الموطأ باكورة الشروح الحديثية التي تعاقب عليها الأماثل من المحدثين جيلا بعد جيل.

وحتى الذين كانوا قبله كان اعتناءهم بغريب الحديث، فقد اعتنى النضر بن شميل المازني (ت 204هـ) بغريب الحديث، ثم محمد بن المستنير الملقب بقطرب (ت 206هـ)، كذلك اعتنى بغريب الحديث، ثم تلا أبو عبيدة معمر بن المثنى(ت 210هـ)، ثم عبد الملك بن قريب الأصمعي(ت 216هـ)، ثم أبو عبيدة القاسم بن سلاّم (ت 224هـ).

وأول الشروح التي وضعت على الموطأ في بدايته كانت في غريب ألفاظ الكلمات، لكن مثل هذا التصنيف في غريب الحديث، و مختلفه ومشكله، وناسخه ومنسوخه في القرن الثاني والثالث، وكان له أثر ظاهر في الشرح الحديثي، لارتباط المسائل المذكورة بغيرها من الشروح التي انطلقت في القرن الرابع.

ويعتبر القرن الرابع باكورة انطلاقه الشروح الحديثية، إذ أسهم علماء هذا القرن إسهامات واضحة في فتح أبوابه، وطرق مسائله، وتثبيت دعائمه. إذ ظهر الشرح المتعلق بذات الحديث، وهو الشرح التحليلي والشرح الفقهي والشرح اللغوي للحديث الواحد، وهذا سنتطرق إليه بالتفصيل في موضعه عندما نتطرق إلى اتجاهات العلماء في شروح الأحاديث بهذه الاتجاهات.